الفصل الأول

البدايات الأولى للتفكير الاجتماعى

يرجع كثير من المفكرين البدايات الأولى للتفكير الاجتماعى إلى فلاسفة اليونان ، الذين كانت فلسفتهم تعبر عن الصورة المنظمة للتفكير الإنسانى ، غير أن التربة الخصبة لتلك البدايات كانت فى بلاد الشرق القديم .

فى مصر القديمة (الفرعونية) كان هناك حكماء وفلاسفة ومشرعون ومصلحون إجتماعيون وعلماء فى كل الفنون ، تناولوا بالدراسة موضوعات لاتقل شأناً عن دراسات فلاسفة اليونان فى هذا المجال ، فقد ترك حكماء مصر القديمة وصايا وتوجيهات فى الاجتماع والتربية والسياسية تعد من أهم مقومات الحياة الاجتماعية ، كما خلفوا لنا كثيراً من التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لايزال بعضها قائماً بصورة أو بأخرى هنا أو هناك .

وفى الهند توصل مفكروه إلى أشكال مختلفة من العقائد والأديان والأفكار الميتافيزيقية التى إنعكست على العادات والأعراف والتقاليد وأساليب التفكير والعمل والعلاقات الاجتماعية وما إلى ذلك .

وفى الصين توصل حكماؤه إلى فلسفة إنسانية واقعية عملية بعكس جيرانهم من حكماء الهند الذين كانت فلسفتهم دينية تهدف إلى خلق المتعبدين والنساك. غير أن فلسفة الصين لم تكن يومئذ تقل شأناً عن غيرها من الفلسفات .. وفيما يلى نعرض لبعض نماذج التفكير الاجتماعى فى تلك المجتمعات التى كانت مهداً لأهم الحضارات فى ذلك التاريخ الموغل فى القدم ، كما كانت مهداً لجذور التفكير الاجتماعى الذى ازدهر فيما بعد .

١ ـ التفكير الاجتماعى فى مصر

يتميز تاريخ مصر الفرعونية بالقدم ، ذلك أن مصر من **أقدم مواطن الحضارة فى العالم**(١) ، وتاريخها القديم هو حجر الأساس فى تاريخ البشرية كلها ، ويتميز ذلك التاريخ ـ أيضاً ـ بخطورته وأهميته ، إذ شغلت مصر فى ذلك الوقت مركزاً فريداً بين أقطار العالم القديم ، ولعبت دوراً أكبر فى سبيل إرساء قواعد المدنية وحمل مشعل الحضارة ؛ كما تميز ذلك التاريخ بالاستمرار والإطراد فهو أطول التواريخ المعروفة وأكثرها إطراداً ، بل هو قصة متصلة الحوادث ، إلا فى فترة قصيرة محدودة .

المصريون ونظام الحكم :

فقد نزحت إلى مصر منذ أقدم العصور قبائل وجماعات ، حيث عاشت تلك القبائل متنابذة تتنازع على الصيد وتتسابق فى جمع والتقاط ثمار النباتات ، ثم بالزراعة فيما بعد ، وقد تجمعت بعض هذه القبائل فيما بعد فى شكل دويلات أو مدن مستقلة مثل مدن اليونان التى أسست بعد ذلك ، تضم كل منها بعض الأقاليم . ولما كان مصدر الحياة فى مصر بعد الله واحداً : هو النيل وما يحمله من رزق وخير ، فقد لزم توثيق التعاون بين هذه الدويلات أو هذه المدن المستقلة ، بل إستلزم الأمر قيام حكومة متحدة تسيطر على البلاد من أدناها إلى أقصاها . حيث قامت بالفعل أول حكومة إتحادية شملت مصر كلها حوالى سنة ٤٢٤٢ ق . م ، وكانت عاصمة الدولة هليوبوليس القديمة مكان عين شمس الحالية ، وكانت هذه العاصمة عثابة عاصمة دينية وسياسية . غير أن هذا الإتحاد لم يدم طويلا . حيث إنقسمت البلاد إلى مملكتين متنازعتين ، إحداهما فى الوجه القبلى والثانية فى الوجه

---

(١) الحضارات الست الأصلية الأولى هى : الحضارة المصرية القديمة ، حضارة بلاد الآند (أمريكا الجنوبية) وحضارات الصين ، الحضارة المينوسية (فى كريت) والحضارة السومرية ، وحضارات بلاد المايا (فى أمريكا الوسطى) .

البحرى ، حتى وفق (مينا) حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م . إلى تحقيق الوحدة السياسية للبلاد ، وإستطاع أن يكون لمصر حكومة مركزية ثابتة وأن يؤسس أول الأسر الحاكمة فى تاريخ مصر الفرعونية ، فبدأت منذ ذلك التاريخ أصول الحضارة المصرية . هذا ويقسم تاريخ مصر منذ ذلك الحين إلى الدولة القديمة ، الوسطى ، والحديثة ... وفى عصر الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرامات ، أقام زوسر مؤسس الأسرة الثالثة سنة ٢٩٠٠ ق.م أول بناء حجرى ضخم عرفه التاريخ ، بل هو أقدم هرم معروف لايزال قائما حتى الآن وهو الهرم المدرج فى سقاره ، كما شيدت كثير من الأهرامات التى لاتزال باقيـــة ومعبرة عن تقدم العلوم الهندسية والإنشائية التى لا مثيل لها .

غير أن فكرة الحكومة المركزية التى كانت مطلوبة لضمان إستمرار وحدة البلاد تحولت على التدريج إلى ظاهرة شديدة التعقيد ، حيث أنه فى ظل تلك الوحدة مع سوء المواصلات بدأت البيروقراطية تدق أعمدتها فى أعماق الأرض المصرية ، بل وفى العقلية المصرية ، ولذلك فإن هناك من يرجع تاريخ البيروقراطية إلى الحكومات المصرية — المتتالية كجهاز — لم يتطور فى أدائه لوظيفته ، وإنما أضفت عليه العهود الطويلة المتتالية صفاتا سيئة ، من أظهرها المركزية(١) . ولقد كانت المركزية مطلبا طبيعيا — كما يرى ماكس فيبر — فى تلك الأزمان الغابرة لضمان وحدة دولة كانت منقسمة على نفسها ، حتى أن هذا النموذج الذى صنعته البيروقراطية المصرية ، أصبح مثالا يحتذى فى التنظيمات الإدارية الأخرى(٢) .

---

(١) Elliot, W. «The Peacock Syndrome. Barriers to Economic Development in Egypt» in Mutagomry, J. & Smithies. A, : Public Policy, Campridge, Mass, Harvard University Press, 1966, p. 227.

(٢) مورو بيرجر : البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة ، ترجمة الدكتور محمد توفيق رمزى : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ صفحة ٣٣ .

وهكذا أنشأت مصر التي هي من أعرق بلاد الأرض نظاما وحكما وإدارة ، فالحكومة ضرورة فرضتها ظروف الحياة الاجتماعية فى وادى النيل ، وجعلتها ظاهرة اجتماعية تميزت بها الأمة المصرية منذ أول عصورها التاريخية كما أن تلك الحكومة عمدت إلى تقوية الجيش المصرى لدرء أخطار المغيرين وإبعاد الطامعين فى خيرات مصر .

وهكذا نرى أن الحكومة ونظام الحكم والإدارة كظواهر اجتماعية تنظيمية نشأت لأول مرة فى مصر ، مما يدل على النضج المبكر للفكر الاجتماعى لدى أجدادنا الأوائل .

المصريون والأسرة :

كانت الأسرة كنظام إجتماعى من أهم الأنظمة الاجتماعية التى حرص المصريون الأقدمون على الاهتمام بها وتدعيمها ، ذلك أنه عندما أراد حكيم الدولة المصرية Egyptian Sage القديمة « بتاح حتب » منذ حوالى ٤٥٠٠ سنة ق . م أن ينصح إبنه ، فكان من بين ما أوصاه به أن قال « **إذا كنت رجلا حكيما ، فكون لنفسك أسرة** » ذلك أن المصرى القديم ، مثل أخلافه من المصريين الحاليين ، كان قد إعتاد منذ أزمان طويلة على التبكير بالزواج ، وإعتباره من أهم الدعائم التى يقوم عليها المجتمع . ومما يؤكد أن الأسرة كانت محل تقدير طوال العصر الفرعونى قول حكيم الدولة الحديثة (آنى) سنة ٣٣٠٠ قبل الميلاد ينصح إبنه بقوله « **بأن من كان حكيما يتخذ له فى شبابه زوجة تلد له أبناء ، فإن أفضل ما فى الوجود هو بيت الإنسان الخاص به** » هذا وليست الزوجة لمجرد أن يكون للإنسان بيتاً ، وإنما يضيف إلى ذلك قول « **حتى تعطيك إبنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك ، وتعيش حتى ترا وقد إشتد عوده وأصبح رجلا ، فإن السعيد من كثرت ناسه وعياله فالكل يوقرونه من أجل أبنائه** » . هذا ولاتزال حكمة جدنا « آنى » ، قائمة فى الريف المصرى حتى وقتنا هذا ، حيث نجد كثيراً من الأمثلة السائرة التى تتصل بذلك مثل « **الكثرة عزوة** » .

وهكذا نرى أن الأسرة كظاهرة اجتماعية كانت محل تفكير وإحترام من المصريين القدامى ، بالإضافة إلى إهتمامهم بالتربية كظاهرة اجتماعية أخرى من الظواهر الاجتماعية التى كانت محل إهتمام الأجداد .

المصريون والمرأة :

وإذا كان المجتمع المصرى القديم قد رفع من شأن الأسرة ، ومجد من يعمل على إرساء أسسها القويمة ، ووضع الأب الذى يقوم على رأس الأسرة فى مركز تحوطه المهابة ... فإن هذا المجتمع لم تكن المرأة فيه بأقل شأنا .. ذلك أن حكيم الدولة الحديثة « آنى » ينصح إبنه بقوله «أطع والدتك واحترمها ، فإن الإله هو الذى أعطاها لك ، لقد حملتك فى بطنها حملا ثقيلا ناءت بعبئه وحدها ، دون أن أستطيع لها عونا ، وعندما ولدت قامت على خدمتك أمة رقيقة لك . وعندما إشتد عودك لم يسمح لها قلبها أن تقول — لماذا أفعل هذا ؟ — وكانت ترافقك فى كل يوم إلى المدرسة ، لتدرس وتتعلم وتهذب ، ثم تغدق على معلمك خبزا وشرابا ، من وفيرات خير بيتها ، وقد ترعرعت واتخذت لك زوجة وبيتا ، فتذكر أمك التى ولدتك ، وأنشأتك تنشئة صالحة ، لا تدعها تلمك ، وترفع أكفها إلى الله فيسمع شكواها » .

وشخصية حكيم الدولة القديمة « بتاح حوتب » وكذلك شخصية حكيم الدولة الحديثة « آنى » تتشابه مع شخصية « لقمان » عبد الله الصالح الذى كان يعظ إبنه بعدم الشرك بالله ، ويوصيه بوالديه ، وبإقامة الصلاة ، إذ يقول سبحانه وتعالى « وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير » ويقول له أيضاً « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر وأصبر على ما أصابك ، إن ذلك لمن عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، أن الله لا يحب كل مختال فخور . وأقصد فى مشيك وأغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ... (لقمان ١٣ — ١٩)

وتضيف إلى ذلك قصة « **الملاح الغريق** » وهى من الأدب الفرعونى ما يشير إلى إهتمام الأجداد ، بالبيت والأولاد والزوجة وبالحياة الاجتماعية والتماسك الأسرى .

المصريون والتشريعات الاجتماعية :

وإذا كان المصرى القديم يهتم بالأسرة إلى هذا الحد ، فإن هناك الكثير من التماثيل والصور التى توضح تماسك العلاقات الاجتماعية الأسرية . غير أننا لانعرف الطقوس والمراسيم التى كانت تلزم لعقد زواج قانونى فى العهود القديمة .. ومع ذلك فإن تاريخ أقدم عقد زواج مصرى وصل إلينا يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد . إذ يوجد بالمتحف المصرى عقد زواج يرجع تاريخه إلى سنة ٢٣١ ق . م . أبرم بين(**أمحوتب**) و(**تاحاتر**) وترجمته هى :

يقول (أمحوتب) لـ (تاحاتر) : « **لقد إتخذتك زوجة ، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه ، والأطفال الذين تلدينهم لى يكونون أطفالى ، ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شيء مطلقاً لأعطيه إلى آخرين من أبنائى ، أو إلى أى شخص فى الدنيا . سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفى لطعامك وشرابك كل عام . ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهريا وسنويا ، وسأعطيه لك أينما أردت ، وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة ، وإذا إتخذت لك ضرة ، أعطيتك مائة قطعة من الفضة** » . وقد شهد على هذا العقد ستة عشر شخصا .

وهذا العقد يوضح أن المصريين القدماء عرفوا التشريعات الاجتماعية ونظموا المواريث ، كما تتضمن بنود العقد ما يمكن أن يوصف بأنه — مقدم صداق — فى صورة تعهد من الزوج بإطعام الزوجة وكسائها وحمايتها — ومؤخر صداق — فى صورة تعويض مادى فى حالة طردها ، أو فى حالة الزواج بأخرى — وهذا يؤكد مدى التقدم المصرى فى المجال التشريعى الاجتماعى القديم إذا قورن ذلك بما هو قائم الآن .

المصريون والأخلاق وآداب السلوك :

كانت الأسرة المصرية محل تقديس من الجميع ، وكانت المرأة التى ترتكب جريمة الخيانة الزوجية تحرق ، وكان شريكها يلقى به فى النهر للتماسيح أو ليموت غرقاً . ومن ثم كانت قواعد الأخلاق وآداب السلوك التى تواضع عليها الناس فى مصر القديمة ، كانت تقضى بالإبتعاد عن الإثم والفجور ، وإنزال العقاب الشديد على كل من ينحرف عن هذه القواعد ... حتى أن حكيم الدولة « بتاح حوتب » الذائع الصيت ، الذى عاش فى عصر الأسرة الثانية عشرة « عهد الإقطاع » . هذا الحكيم طلب من الملك مانصه: **« دع إبنى يقف مكانى ، دعنى أعلمه وفقاً لكلمة أولئك الذين سمعوا حال الأسلاف ، تلك الكلمة التى قدمها الأجداد ... »** . وعندما تصل إليه الموافقة الملكية يشرع « بتاح حوتب » فى تعليم إبنه « **فاتحة الأمثلة فى القول الطيب** » ، ويقسم « بتاح حوتب » حكمته أو تعاليمه لإبنه — بل ولكل الناس — إلى ٤٣ فقرة . ومن أهم ما جاء فى بعض هذه الوصايا ما يلى :

١ — إذا وجدت رجلا عاقلا فى زمنه ، رائداً فى التفكير ، أكثر منك تفوقاً ، فائن ذراعيك — تحت إبطيك — واحنى ظهرك » أى إحترم العلم والعلماء والمفكرين . ويتفق هذا مع قول الله عز وجل : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** » . وقول الشاعر :

قف للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

٢ — إذا وجدت رجلا عاقلا فى زمنه ، فلا تلزم الصمت عندما ينطق سوءاً ... » أى قاوموا الفساد .. ويتفق هذا مع قول العرب لسيدنا عمر رضى الله عنه : « والله لو وجدنا فيك إعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

٨ — إذا كنت تحرث وتوجد مزروعات فى الحقل ، فإن الإله يعطيه لك كزيادة فى يدك « **فلا تشبع فمك دون ذوى قرابتك** » ويقترب هذا من الحديث النبوى : « **لا يبيت أحدكم شبعاناً وجاره جائع** » . كما يتفق مع قول القرآن الكريم : « **الأقربون أولى بالمعروف** » .

١٧ــ إذا كنت تريد أن تكون موفور الكرامة فى أى منزل تدخل فيه ــ من أجل توطيد الصداقة ــ كسيد أو كأخ أو كصديق ... أو أينما دخلت فخذ حذرك من الإقتراب من النساء ، فما من مكان دخله التعلق بهوى النساء إلا فسد . **إن ألفاً من الرجال يصبحون لاشىء بسبب الاستمتاع بلحظة وجيزة أشبه بحلم** . والرجال يلقى بهم للموت بسبب معرفتهم بهن فحسب» . ويقول فى موضع آخر : « **لا تذهبن إلى بيت إنسان بحرية ، بل أدخله فقط عندما يؤذن لك ، وحينما يقول هو ــ أى رب البيت ــ لك بفمه : أهلا بك** » . وفى مكان آخر يقول عن الزنا : « **إنه لجرم عظيم يستحق الإعدام ، عندما يرتكبه الإنسان ، ثم يعلم بذلك الملأ ، لأن الإنسان يسهل عليه بعد إرتكاب تلك الخطيئة أن يرتكب كل ذنب** » . . وهذا يتفق مع قول القرآن الكريم : « **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها ...** » . وقوله تعالى أيضاً : « **والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ...** » . (النور ــ ٢) .

٢٠ــ إذا كنت ناجحاً فوطد بيتك ، أحبب زوجتك فى عناق زوجى ، أشبع جسمها ، إكس ظهرها . إن « **الوصفة لأعضائها هى الطيب ، أفرح قلبها طالما كنت حيا ، إنها حقل مكسب لسيدها** » . ويتشابه هذا كثيراً مع الحديث النبوى الذى يقول « على الرجال إطعام وحماية زوجاتهم ، وعليهن ألا يوطئن فرشهم غيرهم ، ولايدخلن أحداً يكرهونه بيوتهم إلا بإذنهم..» .

وتمضى نصائح حكمة « بتاح حوتب » إلى نهايتها . تلك الوثيقة الاجتماعية التى تعتبر دستورا للسلوك الاجتماعى ، حيث تنطوى على نصائح شخصية وسلوكية وإدارية وتنظيمية بصورة تدل على أن « بتاح حوتب » كان مفكرا مطلعا بوعى وإدراك لظروف مجتمعه ومواطنيه . غير أنه يلاحظ أن

---

(١) Breaestd, J. H., Development to Religion and Thought in Ancient Egypt. Harper and Brother, N.Y., 1959, Ch. 7.

نصائح « بتاح حوتب » لم تكن متشائمة قاتمة مثل أقوال « سنبو » التى سنعرض لها بعد قليل .

المصريون والتنشئة الاجتماعية :

من أهم الأقوال التى تؤكد مدى إيمان المصريين بالتنشئة الاجتماعية السليمة قول « بتاح حوتب » الذى يتشابه مع أقوال الحكماء فى مختلف عصور مصر القديمة . ويزيد عليه ترتيبا لمسئوليات الآباء وواجبات الأبناء — فقرة ٣٨ من حكمته السالفة الذكر — حيث يقول :

« إذا كنت رجلا عاقلا فليكن لك ولد تقوم على تربيته . فذلك شيء يسر له الرب ، فإذا إقتدى بك ونسج على منوالك . وإذا هو نظم من شئونك ورعاها ، فأعمل له كل ما هو طيب ، لأنه ولدك وقطعة من نفسك وروحك ، ولا تجعل قلبك يجافيه . فإذا ركب رأسه ولم يأبه لقواعد السلوك فطغى وبغى وتكلم بالإفك والبهتان فقومه بالضرب ، حتى يعتدل شأنه ويستقيم قوله ، وباعد بينه وبين رفقاء السوء حتى لا يفسد ، فإن من يسير على دليل لا يضل »(١) .

ومن هذا نرى أن تلك الوصية تعبر أصدق تعبير عن الوظيفة الأساسية لعملية التنشئة الاجتماعية السليمة ، التى تتفق مع أحدث النظريات العلمية الحديثة فى علم الاجتماع وفى علم النفس التربوى . وبالتالى تؤكد أسبقية المصريين القدماء فى الفكر الاجتماعى .

---

(١) الدكتور محمد جمال الدين مختار : مقال بعنوان « تاريخ مصر السياسى والحضارى » صفحات ٩٢ — ١٠٨ والدكتور عبد المنعم أبوبكر « النظم الاجتماعية » صفحة ١٠٩ والأستاذ كمال محرم « الأسرة والحياة المنزلية » صفحات ١٣٣ — ١٥٢ فى مجلة تاريخ الحضارة المصرية « العصر الفرعونى » العدد الثانى من المجلد الأول ، وهى من إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

وبالرغم من إزدهار التفكير الاجتماعى المصرى ، على النحو السالف الذكر ، فإن الغربيين دائماً يعترفون بما يحسونه من دين للفكر الاجتماعى اليونانى ومن بعده الفكر الاجتماعى الرومانى . باعتبارهم أساساً للفكر الاجتماعى الحديث . ولكنهم قلما يذهبون إلى أبعد من ذلك ، ويسألون أنفسهم عن نشأة الفكر الاجتماعى اليونانى والرومانى وتطوره ، ومن أين إستمدبعض عناصره الأساسية وما هى صـــلة أولئك اليونان والرومان بالشعوب التى كانت قبلهم أو معاصرة لهم ؟

ونحن لا يمكن أن يدور بخلدنا أن ننتقص من قدر الفكر الاجتماعى اليونانى ، وما قدموه إلى الحضارة الإنسانية ، غير أن اليونانيين أنفسهم يعترفون بفضل حضارات الشرق عليهم . ويفخر الكثير من رجالهم الذين وضعوا أسس العلوم اليونانية أنهم درسوا سنوات عديدة فى مصر . وتلقوا عن كهنتها الكثير مما حملوه معهم إلى بلادهم ، لا فى الفكر الاجتماعى ، أو فى الطب أو فى القانون أو فى الرياضيات فحسب ، وإنما فى كثير من النواحى الأخرى مثل النحت والموسيقى أيضا .

٢ ـــ التفكير الاجتماعى فى الهند

تتميز الهند بآدابها القديمة وتراثها الفلسفى ، وتشريعاتها المعروفة باسم قوانين « مانو » وهذا التراث يتميز بالثراء فى هذه المجالات ، مع خلوه من أى شىء يعتد به بصدد شئون المجتمع ومظاهر التفكير الاجتماعى باستثناء (قوانين مانو) التى تعتبر من أقدم التشريعات الهندية التى وضعتها طائفة البراهما بقصد إتاحة الفرصة أمام الأجيال التالية للوقوف على أوضاع الحياة الاجتماعية وقواعد العادات والأعراف والتقاليد ، ومن ثم فقد جاءت تلك القوانين مرآة صادقة تعكس أوضاع المجتمع الهندى القديم .

هذا ومن أهم النظم التى تتناولها تلك القوانين ما يعرف بالتقسيم الطبقى . فقد حدد الدين البراهمى قواعده ورسم حدوده بدقة شديدة ، ونظم علاقات كل طبقة بما عداها من الطبقات الاجتماعية . وصورت المانوية هذا النظام

على أنه من وحى الإله (براهما) نفسه ، فلابد أن ينصاع له المجتمع ولايرى عنه بديلا . وينطوى هذا النظام على فكرتين أساسيتين أولاهما جمود الوضع الاجتماعى بمعنى ألا يتغير الوضع الطبقى من الأصول إلى الفروع ، وثانيهما الخضوع لما يفرضه الدين على أفكار كل طبقة من التزامات ووظائف إجتماعية .

وتقسم المانوية المجتمع الهندى القديم إلى أربع طبقات هى :

١ ــ طبقة البراهما Brahmanns وهى طبقة رجال الدين .

٢ ــ طبقة الكشاتريين Kchatriyas وهى طبقة المحاربين .

٣ ــ طبقة الفيسائيين Vaicyas وهى طبقة التجار والصناع .

٤ ــ طبقة السودريين Soudras of sadras وهى طبقة العبيد والأرقاء .

وعلى أساس هذا التقسيم الطبقى يتفاوت أفراد المجتمع فى الثراء والمركز الاجتماعى والحريات العامة والخاصة بمعنى أن الكهنة البراهمانيين هم أكثر أفراد المجتمع إمتيازا ، وهم وحدهم الذين يعلمون الناس . أسفار الفيدا Vedas الأسفار المقدسة للبراهمانين وهم الذين يستأثرون بالسلطة والنفوذ والجاه معتمدين فى ذلك على أفراد الطبقة الثانية « الكشاتريين » التى تدافع عنهم وتحافظ على هيبتهم الاجتماعية ووظيفة الطبقة الثالثة هى مزاولة الزراعة وصيد الحيوان ودجنه والقيام بالتجارة والصناعة . أما الطبقة الرابعة وتأتى فى الدرك الأسفل من السلم الطبقى فليس لها وظيفة اجتماعية إلا خدمة الطبقات السابقة ، لا سيما الطبقة الأولى . وقد حرمت الطبقتان الثالثة والرابعة من الحرية السياسية . إذ ليس من حق أفرادها الوصول إلى كراسى الحكم ، فضلا عن طبقة العبيد الذين يحرم عليهم وضعهم الاجتماعى مزاولة أى حق سياسى أو مدنى . ولهذا فإن أهم ما يميز البناء الطبقى الهندى هو إرتكازه على النظام الطائفى المغلق .

وبالإضافة إلى ذلك ، جاء فى قوانين (مانو) أيضاً أن « **البراهمى يجب إحترامه وإجلاله بسبب نسبه وحده ، وأن أحكامه هى وحدها الحجة ، وأن له حين الحاجة أن يمتلك مال أى فرد من السفلة ، لأن العبد وما ملكت يداه ملك لسيده . وكان محرما — طبقاً لقواعد هذه الديانة — على الطبقة المنكودة أن يتصل أحدهم بشىء من الدين أو العلم به ، وإلاحل به عذاب غليظ ، مثل صب الرصاص المصهور فى أذنيه وشق لسانه وتقطيع جسمه .**

ويقوم هذا التفاضل فى الكتب المقدسة للبراهمانيين الهنود على أساس عناصرهم ونشأتهم الأولى ، فتذكر أن (براهما) قد خلق البراهمانيين من **فمه** ، وخلق فصيلة الكشاتريين من **ذراعه** ، وخلق فصيلة الفيسائيين من **فخذه** ، وخلق فصيلة السودريين أو المنبوذين من **قدمه** . ولما كانت أشرف الأعضاء وأطهرها — من وجهة نظرهم — هى ما علا السرة ، وأحطها هو ما كان أسفل السرة ، وأحطها جميعاً هو القدم . فإنهم يرون أن أشرف الناس جميعاً بحسب العنصر والنشأة الأولى هم الذين إنحدروا من فم براهما وهم البراهمانيون ، ويليهم فى الفضل الذين إنحدروا من ذراعه وهم الكشاتريون ، وكانت الرذائل الإنسانية التى إنحدرت من فخذه وقدمه ، وهم الفيسيائيون — وأكثرهم رجساً ونجساً — هم المنبوذون الذين إنحدروا من قدم براهما وهم السودريين وهؤلاء لا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم ولا الإرتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود(١) ومن ثم فإن النظام الطبقى فى الهند ، كان أداة تعوق التطور الاجتماعى ووسيلة جمود فى المجال الحضارى.

هذا وقد تفرعت الديانة البوذية عن الديانة البراهمانية ، ومن ثم جاءت أكثر تطورا ، حيث نادت بوجوب المساواة بين أبناء المجتمع ، وخففت من حدة الفروق الطبقية ، وناشدت معتنقيها باعتبار الأغنياء والفقراء سواء وأن الذين يعملون بالحرب مثلهم مثل الذين يعملون بالصناعة وبالزراعة ،

---

(١) قوانين مانو : الكتاب الأول ، مواد ٢١ — ٨٨ — ١١٩ ومواد الكتاب الرابع :

باعتبارهم مواطنين فضلاء ، يجب أن تظلهم المساواة بجميع مظاهرها ولم يتردد زعماء هذا الدين فى المجاهرة بالدعوة إلى القضاء على الإمتيازات التى يتمتع بها فريق من الشعب دون غيره ، وشددوا النكير بصفة خاصة على طبقة (**البراهمية**) على إعتبار أنها تمثل مركز التحكم والإستبداد .

بيد أن الفلسفة البوذية بالرغم مما أعلنته من مبادىء إنسانية ومن دعوة إلى الحرية والإخاء والمساواة . وبالإضافة إلى أنها أكثر تقدما وأوسع تطورا من البراهمية ، فإنها لم تنجح فى تقرير حقوق وواجبات المواطنين بصفة حاسمة ، ولم تترك أثرا عمليا فى المجتمع الهندى القديم . ذلك أن البراهمية والبوذية إشتركتا فى صبغ كل الأفكار بالنزعات الصوفية ونظرتا إلى الحياة باعتبارها شراً لا مناص من البحث عن التخلص منه حتى يتمتع الإنسان بالحياة الآخرة باعتبارها المطلب الأسمى لكل فرد .

غير أنه بالرغم من ذلك ، يمكن القول بأن التفكير الاجتماعى البوذى وإن جنح إلى الزهد فى أمور الدنيا ، فإنه لم يخل من مفاهيم خلقية وعملية ، ذلك أنه وضع الأخلاق القويمة والسيرة الحسنة الطاهرة فوق الثروة والجاه ، بل وفوق كل الطقوس والشعائر ، على إعتبار أن الدين هو المعاملة ، وليس هو الرسوم والشعائر التى يصطنعها رجال الدين . ومعنى ذلك أن التفكير الاجتماعى البوذى نه طابع أخلاقى سلوكى ، هدفه تخليص المجتمع الهندى من براثن النظام الطبقى القائم على العقيدة البراهمية التى كانت تزعم أن البراهمانى من طبيعة مقدسة ، وأن (**السودرا أو المنبوذ**) من طبيعة مدنسة ، وأكد أن القداسة ليست صفة ولادية أو وراثية ، وإنما كل إنسان يلتزم بسلوكيات الدين البراهمى يستطيع أن يكون برهمانيا .

نخلص من هذا إلى أن الديانات والفلسفات الهندية القديمة لم يكن هدفها تكوين المواطن الصالح . وإنما الحصول على زهاد ورهبان ، وتنشئة أجيال من المتعبدين والنساك ، مما صرف أنظار الناس عن البحث عن حقوقهم والقيام بما عليهم من واجبات اجتماعية وسياسية ، وسارت بهم بعيداً عن

التفكير فى الدولة والمجتمع ومن ثم فإن قدامى الهنود لم يتوصلوا إلى المقومات الأساسية للنظم الاجتماعية والحكم السياسى الأمثل ، وترتب على ذلك إستمرار التحكم والتسلط لتدعيم أركان العبودية والفقر والجهل لعامة الشعب أحقابا طويلة . ولهذا لم يبلغ المجتمع الهندى القديم فى رقيه الفكرى إلى التنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى بلغته المدنية المصرية القديمة كما أوضحنا ذلك من قبل ، وإن كانت التعاليم البوذية — بالرغم من تمجيدها للزهد فقد إنطوت على بعض المفاهيم الخلقية العملية ، التى تجعل الأخلاق القويمة والسيرة الحسنة الطاهرة قبل الثروة والجاه ، بل وقبل الطقوس والشعائر الدينية .

٣ — التفكير الاجتماعى فى الصين

من أهم ملامح الفلسفة الصينية الحديثة أنها إبنة أصيلة لفلسفة أجدادهم الذين لم تقم فلسفتهم على أساس دينى ، وإنما على أسس عملية إنسانية تخاطب أفراد المجتمع وترمى إلى خلق أجيال من المواطنين الأحرار ، ومن ثم أولت مزيد عنايتها لكل ما يتصل بنواحى الحياة الاجتماعية بصفة عامة ومظاهر السلوك الأخلاقى بصفة خاصة ، على أنه إذا كان الدين هو مصدر التشريع فى الهند ، فإن التفكير الإنسانى أو عقل الإنسان ، كان هو مصدر التشريع لدى الصينيين القدماء . ومن ثم فقد جاءت الفلسفة الصينية معبرة عن ظروف الحياة ومتطابقة مع مقتضيات المجتمع ولم يكن لها من هدف سوى خير الفرد ، بل وخير الجنس البشرى بكامله . كما أن الفلسفة الصينية لم تكن قدسية ، أى أنها لم تكن تعاليم سماوية وصلت إليهم عن طريق الوحى عن قوى إلهية « مع الشك أو الظن . أو أنها صادرة عن شخصيات خارقة للعادة مجهولة الأسماء . كما هو موجود بالهند على سبيل المثال ، بل كانت هذه الفلسفة من نتاج عقول أشخاص معروفين . وقد إنتقل تراثهم إلى الأجيال التالية من أبناء الصين ، كما نقلت المصادر التاريخية دقائق هذا التراث . هذا وأهم شخصيتين فى الفلسفة الصينية هما (كونفوشيوس)

زعيم فلاسفة الصين القدامى ومن سار على نهجه وهم كثيرون ورد ذكرهم فى مؤلفات (منسيوس) Mencius من قادة الفكر والسياسة فى الصين القديمة ، هؤلاء الذين كانوا يلقبون (كونفوشيوس) بأسم (معلم الجنس البشرى) كما كان فى نظرهم أعظم معـــلم (أنجبته البشرية) ، ثم منسيوس نفسه .

الفلسفة الكونفوشيوسية :

هذا وقد اصطلح الكثيرون على تسمية دراسات (كونفوشيوس) الذى كان حكيما وفيلسوفا سياسيا وأخلاقياً ودينيا ومن سار على نهجه بإسم الفلسفة الكونفوشيوسية التى سادت كل أرجاء الصين من القرن السادس قبل الميلاد حتى أوائل القرن العشرين ، تلك الفلسفة التى كانت تستمد مادتها من الأخلاق بمعنى أن هدفها الأساسى هو إصلاح الأخلاق الاجتماعية عن طريق الإرتقاء الاجتماعى بالأسرة لكى تتخلص من ضعف البواعث الأخلاقية ، بالإضافة إلى التيارات الشكية التى أفسدت جو الأسرة الاجتماعى . ولكى يتحقق هذا فإنه من الضرورى الارتقاء بالفرد من خلال تنظيم حياة الأسرة الاجتماعية ، بمعنى أن الفرد هو الركن الأساسى فى بناء الأسرة ، والأسرة هى الوحدة الأولى فى المجتمع . وقد نادى بضرورة تقويم الأفراد لنفوسهم وعقولهم ، مع التزود بالمعارف الإنسانية التى تسمح بالقضاء على دوافع الشهوات غير الأخلاقية .

وكان من رأيه أن وصول المجتمع الصينى إلى نظام اجتماعى سليم يكون أساساً لنظام سياسى يكفل الحرية والمساواة ، وتحقيق العدالة ، مرهون بتنظيم شئون الأسرة عن طريق التطهر والإخلاص والتضامن وطاعة الأبناء للآباء والزوجات للأزواج . ذلك أن الحياة الأخلاقية عنده أشبه بسفرة طويلة يقطعها الإنسان بادئا بأقرب نقطة فيها ، وعلى ذلك فالأخلاق الفاضلة تبدأ بين أبناء الأسرة الواحدة حيث يعامل الأب أبناءه بنفس المعاملة التى كان ينتظرها كل منهم من والده . وكذلك تكون معاملة الأبناء للآباء والأمهات ،

فالأسرة هى المكان الأول للتجربة الأخلاقية ، وهى النقطة الأولى التى تبدأ منها الأخلاق الفاضلة . إذ أنه « عندما تسود الألفة بين الزوج والأولاد والزوجة ، فما أشبه المنزل بآلتين موسيقيتين قد تآلفت أنغامها . ! وعندما يعيش الأخوة فى تآلف وسلام . فإن المنزل يبقى إلى الأبد فى وحدة وإنسجام . وإذا حسنت أخلاق أفراد الأسرة ومعاملاتهم حسنت أخلاق المجتمع ، على إعتبار أن المجتمع ليس إلا امتداداً للأسرة ، ولأننا « إذا علمنا كل أسرة كيف تكون على خلق فإن المجتمع كله يصبح على خلق ، وإذا تعودت كل أسرة العطف والشفقة ، تعود المجتمع كله على العطف والشفقة ، وإذا عملت كل أمة على إصلاح حالها ، فإن الإنسجام والوئام سيسودان المجتمع الإنسانى بأسره » .

والواقع أن العناية بالتنشئة الاجتماعية الخلقية لأفراد الأسرة كانت من أهم مميزات التفكير الاجتماعى الصينى فى كل العصور القديمة . بل إن دستور « جو » وهو من أقدم الآثار القانونية والتشريعية فى الفكر الاجتماعى الصينى ، أشار إلى تخصيص وزير مسئول لشئون الأسرة ، كما يختص هذا الوزير أيضاً برفاهية أفراد الشعب وإسعادهم .

على أن القواعد الأخلاقية عند كونفوشيوس وسط بين الإفراط والتفريط ، على إعتبار أن الطبيعة الإنسانية تقوم على عنصرين « الذات الإنسانية الحقة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقى ، ثم الانفعالات التى تستيقظ فى النفس الإنسانية « ولعل هذا القول يتشابه مع قول أرسطو عن الفضيلة بأنها « وسط بين رذيلتين » !.

وقد ألف « كونفوشيوس » خمسة كلاسيكيات Five Classics لكى يربط بها بين حضارة الصين القديمة وبين حضارة عصره الذى عاش فيه وقد إحتوت هذه الدراسة على دراسة للتقاليد والعادات الدينية فى ولايات الصين المختلفة مع ربطها بجذورها الممتدة عبر التاريخ السابق للميلاد ،

وكذلك أصول ديانات الأسر الصينية القديمة وعشائرها وأصول الحكم السياسى فيها والمبادىء التى كان يقوم عليها النظام السياسى . . إلخ .

وعرض أيضاً فى مؤلفاته لفروع المعرفة الستة التى كانت سائدة فى عصره وهى : الطقوس ، الموسيقى ، الرماية وقيادة العربات وركوب الخيل ، القراءة ، الرياضة ، والحساب . وأنشأ تلاميذه مدرسة لدراسة فلسفته ومؤلفاته إستمرت أكثر من ألفى عام ، ومؤلفاته هى :

١ ـ كتاب الأغانى أو الشعر .

٢ ـ كتاب التاريخ .

٣ ـ كتاب التغيرات .

٤ ـ كتاب الربيع والخريف .

٥ ـ كتاب الطقوس والتقاليد .

وفى كتابه الثالث الذى خصصه لدراسة فلسفة تطور الحوادث ، للإفادة منه فى التنبؤ ومعرفة الحوادث المستقبلة ، فقد استطاع كونفوشيوس تحويل (علم التنبؤ) إلى دراسة علمية للسلوك الإنسانى وكيف يتأثر بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه . وبذلك يمكن باستخدام هذه الدراسة التنبؤ علميا بسلوك الفرد فى المستقبل .

وقد تناول تلاميذ كونفوشيوس وعلى رأسهم (منسيوس) الذى تتلمذ على يدى (تسيسز Tsesze وهو من أحفاد كونفوشيوس . . تناولوا مؤلفات كونفوشيوس فى مؤلفات أربع من أهمها كتاب بعنوان(منسيوس) باعتباره فيلسوف عصره يومئذ ، ومنها أيضاً كتاب المنتخبات Analects الذى يتضمن تلخيصاً أميناً لفلسفة كونفوشيوس ، حتى أنه أطلق عليه إسم (إنجيل الكونفوشيوسية Confecious Bible .

وقد تابع (منسيوس) تعاليم أستاذه كونفوشيوس حيث كان يوجه أقسى عبارات اللوم إلى الحكام فى حالة وقوع نوع من الظلم على بعض أفراد الشعب ، وكان يذكرهم بقول أستاذه « تقوم الإمبراطوريات على دعائم من المبادىء الإنسانية ، وتزول بزوالها . وقوله ، « إنك إذا قدت الناس وفق قوانين إجبارية وهددتهم بالعقاب ، فقد يحاولون إتقاء العقاب. ولكن لن يكون لديهم الشعور بالشرف ، ولكنك إذا قدتهم بالفضيلة ونظمت شئونهم بالتربية فإن علاقاتهم ستقوم على أساس من الشرف والاحترام ، ويضاف إلى ذلك أن (منسيوس) كان يعتبر الأفراد بمثابة أفضل العناصر الاجتماعية ، ومن أجل تيسير الحياة الاجتماعية لهم كان ينادى بدستور لتنظيم الملكية وإصلاح قوانين الضرائب . وكانت دعوته هذه محل تقدير من سائر أفراد الشعب .

ويؤخذ أيضاً على (منسيوس) أنه دعا إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين مع المساواة بينهما ، إحداهما هى طبقة العلماء والمثقفين ، ومن ثم فمن حقها أن تسود وتحكم ، والثانية هى طبقة الكادحين والعاملين من زراع وصناع وتجار . ومن واجبها أن تعمل وتنتج مع ضرورة التضامن بين الطبقتين .

تلك هى بعض نماذج من التفكير الاجتماعى عند أقدم شعوب العالم وأخلدها حضارة ، ومع ذلك فهى تدل على مبلغ اهتمام هذه الشعوب بالنواحى الاجتماعية ، بالرغم من أن ما وصل إلينا منها عبارة عن أفكار وآراء لا تربطها وحدة فكر أو طريقة بحث ، بمعنى أنها عبارة عن مجموعة من التأملات الفلسفية فى النواحى الاجتماعية ، ومن ثم يمكن القول بأن الدافع إليها كان ما ينبغى أن يكون وليس البحث فيما هو قائم .

نخلص من هذا إلى أن التفكير الاجتماعى لدى شعوب الشرق القديم لم يكن متميزا بموضوعيته ومنهجيته فحسب ، بل كان مختلطاً بغيره من

ألوان التفكير الدينى الفلسفى والسياسى والاقتصادى ، ولم يكن لهذا التفكير من هدف سوى الوصول إلى المثل الأعلى الذى ينبغى تحقيقه فى التنظيم السياسى والاجتماعى ، وفق معايير تحكم قواعد السلوك بين أفراد المجتمع . ومن ثم فإنها لا ترقى إلى مستوى المذاهب والنظريات . غير أن هذا لا يقلل من أهمية ما أثاروه من مسائل اجتماعية أضاءت الطريق أمام الأجيال اللاحقة من المفكرين والمصلحين الاجتماعيين الذين بلوروا كثيراً من الآراء الاجتماعية التى تناولت بالدراسة نشأة الدولة وقيام السيادة والسلطة فى المجتمع ، كما حددت الطريق الذى يمكن أن تسير فيه المعاملات الاجتماعية والتشريعات التنظيمية والإدارية والعلاقات السياسية لجميع أفراد الشعب .

(و) أفلاطون :

من أهم المؤلفات التى وضعها أفلاطون (٤٢٨ — ٣٤٧ ق . م) ثلاثة هى : الجمهورية(١) ، السياسى ، والقوانين . وتدور كلها حول الدراسات الاجتماعية . بيد أن مؤلفه الأول (الجمهورية) أكثر عمقا وأغزر علما ، ذلك المؤلف الذى كان الهدف من تأليفه هو إنشاء مدينة فاضلة خالية من كل الموبقات التى كانت سائدة فى ذلك الحين . وكتاب الجمهورية(٢) يعبر بوضوح عن فلسفة أفلاطون الاجتماعية وفيه يرسم صورة للدولة المثالية أو المدينة الفاضلة ومن ثم يمكن دراسة محتويات هذا الكتاب أو بالأحرى دراسة ملامح المدينة الفاضلة . ويلاحظ أن هذا الكتاب يتكون من عشرة أبواب ، يتحدث أفلاطون فى سبعة منها عن العدالة باعتبارها فضيلة النفس الفردية ، كما هى نظام يتعلق بالدولة . ولذلك فقد إقتضى بحثه تفسير طبيعة الإنسان وتكوين الدولة على حد سواء حتى يمكن تحديد الظروف الواجب توافرها ، كى تتحقق العدالة فى كل منها .

أسس المدينة الفاضلة :

ناقش أفلاطون نشأة وطبيعة المجتمع الإنسانى ، وحدد الأسس التى يمكن أن تقوم عليها المجتمعات من وجهة نظره ومن خلال هذا التحديد أوضح فساد أسس المجتمعات التى كانت قائمة وقتئذ .

وإستند أفلاطون فى تحديد أسس المدينة الفاضلة إلى تشبيه المدينة بالفرد ، بمعنى أن المدينة الفاضلة عبارة عن وحدة حية تتكون من أجهزة مختلفة ذات وظائف محددة مثل الفرد سواء بسواء ، هذه الأجهزة ترتبط

---

(١) الجمهورية هى ترجمة عربية للكلمة اللاتينية Respublica التى ترجم بها شيشرون الكلمة اليونانية Politia وهذه الكلمة يقصد بها أفلاطون « الدولة » أو « المدينة » أو « الجمهورية » .

(٢) سوف نعتمد فى هذا الفصل على ترجمة الشيخ حنا خباز « للجمهورية » .